التحليل النفسي عند فرويد

دراسة نقدية في ميزان الإسلام

إعداد

دكتورة/ بسمة بنت أحمد جستنية

عضو هيئة التدريس بكلية التربية والعلوم الإنسانية

بجامعة طيبة

دكتوراه في العقيدة والأديان والفرق والمذاهب

من جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله وبعد:

فلقد تزايدت أهمية الدراسات النفسية والاجتماعية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية التطبيقية، كالتربية والتعليم والدعوة والإعلام، والعلاج الجسمي والنفسي والعقلي ... الخ.

ويحتل علم النفس أهمية خاصة لطالب الشريعة وأصول الدين، حيث يسهم في إعداده مهيئاً ليمارس دوره كداعية ناجح سواء في مجال التعليم أو الوعظ والإرشاد أو القضاء، حيث ينبغي له أن يفهم ما يصدر عن الإنسان من سلوك ظاهر وباطن، ومعرفة محركات السلوك ودوافعه وحوافزه وأسبابه، حتى يستطيع أن يحلل ويشرح وجهات النظر الغربية الزائفة، وبيان أصولها الوثنية، والتي ظلت آثارها حية في وجدان علماء الغرب المعاصرين.

ومن تلك النظريات الغربية في علم النفس نظرية فرويد في مجال الدراسات النفسية، وهو باحث نمساوي الأصل، أرجع الطاقة الإنسانية كلها إلى غريزتين أساسيتين، هما: غريزة الحياة أو الجنس، وغريزة العدوان أو الموت.

وفي هذا اختزال مخل في تفسير النشاط الإنساني، وفيه تجاهل للجوانب الروحية وغيرها في الإنسان.

وإذا كانت النظرية الفرويدية تنطوي على بعض الإسهامات المفيدة في مجال الطب النفسي، مثل تفسير الكثير من الأمراض النفسية والعقد والقلق، إلا أن إسراف فرويد في التفسير الجنسي والعدواني أفقدها الكثير من القوى التفسيرية والموضوعية.

وفي هذا البحث أعرض لهذه النظرية، وبيان مفهومها، ونقد العلماء الغربيين لها، وأخيراً بيان موقف الإسلام منها.

وقد جعلت البحث في: تمهيد عرفت فيه بفرويد، والتحليل، وثلاثة مباحث، وخاتمة على النحو التالي:

المبحث الأول: نظرية التحليل النفسي وحوي:

أولاً: تعريفها.

ثانياً: مبادئ الحياة النفسية عند فرويد.

ثالثاً: أهم مفاهيم نظرية التحليل النفسي.

المبحث الثاني: منهج العلاج النفسي، والظواهر التي كشفها.

المبحث الثالث: نقد نظرية التحليل النفسي. وبيانها في ميزان الإسلام

وأخيراً الخاتمة، فيما توصلت إليه من نتائج.

أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما عرضت، وأن يغفر لي ما زل به القلم واللسان. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد

فرويد والتحليل النفسي

فرويد:

ولد فرويد في ٦/٥/١٨٥٦م في (فرايبورج). وهو إقليم كان ضمن الإمبراطورية النمساوية، وصار بعد الحرب العالمية الأولى جزءاً من (تشيكوسلوفاكيا). من أسرة يهودية، انتقلت إلى (فينا) وهو في الثالثة من عمره.

التحق (فرويد) بجامعة فينا سنة ١٨٧٣م، حيث درس الطب، وتخصص في طب الأعصاب، وقام بأبحاث عديدة نشرها سنة ١٨٨٥م و ١٨٨٦م.[1]

سافر إلى فرنسا، واتصل هناك بعدد من الأطباء الفرنسيين المتخصصين في الأمراض النفسية، وعلى رأسهم (شاركو) و (بيير جانيه). وكان هؤلاء يستخدمون التنويم المغناطيسي في علاجهم للأمراض العقلية، وقد اهتم فرويد بهذه الطريقة، وأجرى العديد من التجارب التي استعان فيها بالتنويم المغناطيسي في فرنسا والنمسا.

واكتشف أنه من الممكن تحت التنويم المغناطيسي، وفي أحوال كثيرة جعل المريض يتذكر حوادث ومشاعر يبدو أنها كانت سبباً في إحداث أمراض عصبية ونفسية، واستنتج من هذا أن استعادة مثل هذه الذكريات، وما

---

(1) انظر :موسوعة الفلسفة، عبد المنعم الحفني (٩٦٢/٢)، الموسوعة العربية الميسرة (١٢٩٧/٢). التحليل النفسي ماضيه ومستقبله، ٣٥٤.

صاحبها من تجارب انفعالية تفيد في علاج المريض، فقد وجد أن أعراض المرض كانت تختفي غالباً متى كان التذكر ممكناً.

وسعى فرويد بالتعاون مع (بروير) لتكميل هذه الطريقة، لكن تبين لهما أن التنويم المغناطيسي لا يفيد إلا في مساعدة المريض على التذكر واستعادة التجارب التي أدت إلى المرض. وبمزيد من التجارب تبين لـ(بروير) أنه من الممكن الاستعاضة عن التنويم المغناطيسي بما يسمى (العلاج بالمحادثة)، وذلك بأن يتحادث مع المريض في موضوعات انفعالية دون الاستعانة بالتنويم المغناطيسي، ولكن (بروير) ما لبث أن انصرف عن هذه الطريقة لما وجد من أمور غير واضحة حول تفاصيل شخصية وجنسية من المرضى محيرة وغير واضحة. أما فرويد فقد استمر في هذه الطريقة، فقد وجد في تصريحات مرضاه وما يصحبها من ردود انفعالية وسيلة للعلاج.[١]

وفي عام ١٨٩٣م نشر فرويد نظرياته في أثر التنفيس الفعال، الناجم عن استذكار الذكريات المؤلمة، ومن ثم أضاف في عام ١٨٩٤م نظريته القائلة بأن قصص الحوادث المكبوتة[٢] التي مرت بالإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضايا ومواضيع جنسية. ومن هنا انطلق بأبحاثه الشهيرة في الجنس، بما في ذلك خبرة الطفولة في الجنس، وعالج الموضوع بصراحة جارحة، وسرعان ما اتبع أبحاثه هذه بنظريته في العقل اللاواعي[٣]، بوصفه المكان الذي يدفع الإنسان المعيبة إلى داخله.[٤]

---

(١) ينظر في ذلك موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي (١/١٢٢).

(٢) انظر ص ٨ من هذا البحث.

(٣) انظر ص ٦ من هذا البحث.

(٤) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، رونالد سترومبرج، ص٤٩٩.

واستطاع فرويد أن يطور كشوف (شاركوه) و (بروير)، وأن يرسي في بضع سنوات دعائم مدرسة التحليل النفسي، التي ما زالت حتى اليوم تمارس تأثيرها في الحياة الثقافية في العالم الغربي والرأسمالي. وعقد أول مؤتمر عالمي للتحليل النفسي في (سالزبورج) سنة ١٩٠٨م. (١)

استمر فرويد في الجمع بين التنويم المغناطيسي وبين العلاج بالمحادثة لكنه بعد ذلك تبين له أن التنويم غير فعال في بعض الأحوال، فانصرف إلى طريقة العلاج بالمحادثة أكثر فأكثر، وقلل من اعتماده على التنويم، حتى لم يعد يفيد إلا في جعل المريض يسترخي ويطلق العنان لعقله.

وخلال هذا كله كان فرويد يولي أهمية خاصة لما يرد في المحادثات العلاجية من تصريحات المرضى عن مشاكلهم الجنسية بخاصة، مما جعله يرجع إلى الغريزة الجنسية الأصل في كثير إن لم يكن في كل الأمراض العصبية والنفسية، وهو الاتجاه الذي أنكره عليه زميله (بروير) فانفصل عنه.

وقد رأى فرويد أن اهتمام عالم النفس وعالم الأمراض النفسية يجب أن ينصب على طبيعة تجارب الشخص في الحياة، وكيف حدثت كل واحدة من هذه التجارب، وكيف تفاعلت مع تجاربه السابقة، وافترض أن التجارب الأولى في حياة الطفل ذات أثر كبير في تكوين أساس الشخصية، وأن ما يحدث للإنسان بعد سن المراهقة لا يؤثر إلا قليلاً في نمط الشخصية الذي تكون قبل ذلك.

وكان اهتمام فرويد قد اتجه في المقام الأول إلى ذوي الأمراض العقلية، واعتقد أن من الممكن تعميم النتائج التي يصل إليها في دراسة المرض لتشمل كل أنواع السلوك الإنساني. (١)

---

(١) انظر: موسوعة الفلسفة، الحفني (٩٦٢/٢)، الموسوعة العربية الميسرة (١٢٩٧/٢).

والمنهج الذي استخدمه هو ترك خواطر المريض تنهال عليه في حرية، مع قيام المحلل النفسي بملاحظة المريض وتفسير خواطره، فكان يطلب من المريض أن يصرح له أو للمحلل النفسي بكل ما يجول في خاطره، بغض النظر عما عسى أن يكون فيها من تفاهة وعدم معقولية أو مخالفة لقواعد الأخلاق والمعاملات، وذلك على أساس أن مجرى التفكير هو سلسة من الخواطر المترابطة التي فيها ترتبط كل خاطرة بما يسبقها. والإنسان في الأحوال العادية يكتم الأفكار السيئة إما بسبب المخاوف أو القيم الأخلاقية السائدة، ويريد فرويد بترك الخواطر تنطلق دون حسيب ولا رقيب أن يصل إلى ما كتم في غور اللاشعور(٢) من خواطر وأفكار ورغبات، وتسلسل الترابطات يؤدي إلى المشاعر والأفكار والدوافع التي تسببت في مشاكل نفسية عند المريض. (٣)

---

(١) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ٤٩٩.

(٢) اللاشعور :مجموع الأحوال النفسية الباطنة التي تؤثر في سلوك المرء وإن كانت غير مشعور بها. والأحوال اللاشعورية إما أن تكون مما يمكن إخراجه من الظلمة إلى النور بوساطة الانتباه والتحليل والتأمل، وإما أن لا تكون كذلك. وقد أطلق فرويد اسم ما قبل الشعور على الأحوال اللاشعورية التي تستطيع من تلقاء ذاتها أو بوساطة الإرادة أن تجتاز عتبة الشعور وتصبح شعورية. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص٢٦٤.

(٣) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، ص ٤٩٩، موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي (١/١٢٣)

المبحث الثاني

نظرية التحليل النفسي

أولاً- التحليل النفسي: اصطلاح حديث أطلقه فرويد على إحدى طرق البحث والعلاج في علم النفس المرضي، لدراسة أعماق الحياة النفسية وعلاج اضطراباتها. وقد انتشر هذا الاصطلاح في علم النفس الحديث، حتى أطلق على جميع التقنيات المستعملة في دراسة الأفعال النفسية شعورية كانت أم لا شعورية.

ولعل أهم أغراض التحليل النفسي سبر الحياة اللاشعورية، والكشف عن العقد. [1] الكامنة[2] في الشعور، فإن هذه العقد المؤلفة من الرغبات المكبوتة[1] والذكريات المنسية، والأفكار والمشاعر المتضاربة تحدث اضطرابات نفسية

([1]) العقدة في الفرنسية Complexe، وفي الإنكليزية Complex، وفي اللاتينية Complexus. العقد جملة من التصورات والانفعالات المكبوتة الناشئة عن خبرات صراعية ذات شحنة وجدانية كبيرة. وهي وإن كانت لاشعورية إلا أنها تؤثر في تفكير الشخص، وتطبع سلوكه بطابع الانحراف والشذوذ، والعقد النفسية كثيرة منها عقدة النقص أو مركب النقص وعقدة أوديب وعقدة (الكترا) وغيرها. أما عقدة النقص فهي حالة انفعالية تسيطر على المرء من جراء شعوره بقصور حقيقي أو وهمي ، وهي تحمله في كثير من الأحيان على كبت عواطفه، فتوقعه في عصاب تختلف شدته باختلاف الظروف المحيطة به، والوسائل المتوافرة لديه.

وأما عقدة (أوديب) فهي مجموعة من التصورات والأوهام والوجدانات الشعورية أو غير الشعورية المتصلة برغبة الطفل في الاستحواذ على أحد والديه، فإذا كان الوالد والطفل من جنسين مختلفين (كرغبة الولد في الاستحواذ على أمه أو رغبة البنت في الاستحواذ على والدها) سميت هذه الرغبة بعقدة (أوديب) الإيجابية، وإذا كانا من جنس واحد سميت هذه العقدة بعقدة (أوديب السلبية)، وتنطوي العقدة في كلا الحالين على رغبة الطفل في التخلص من الوالد المنافس له في حبه. وقد سميت بعقدة (أوديب) نسبة إلى : أوديب بن (لايوس) ملك طيبة الذي قتل أباه وتزوج أمه. ويقابل عقدة (أوديب) لدى الذكور عقدة (الكترا) لدى البنات، وتتميز هذه العقدة بميل جنسي مظهره رغبة الفتاة في الاستحواذ على أبيها، وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى (الكترا) بنت (اغاممنون) التي ساعدت أخاها (أورست) على الأخذ بثأر أبيهما من أمهما التي اشتركت في قتله ومن خصائص هذه العقدة تعلق الفتاة عن وعي أو غير وعي بأبيها وكرهها لأمها، واضطراب تصوراتها وعواطفها من جراء شعورها بالإثم. راجع :المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص ٨٤

([2]) الكامن في الفرنسية immanent، في الإنكليزية Immanent، في اللاتينية Immanens كمن الشيء في المكان توارى واختفى، والكامن ما ينطوي عليه باطن الشيء من صفات دائمة. وله في الاصطلاح ثلاثة معان:

وجسمية مختلفة، وخير وسيلة عند رواد هذه النظرية لشفاء المريض إشعاره بعقدته النفسية، أي إخراج هذه العقدة من الظلمة إلى النور بواسطة أسئلة مباشرة تلقى عليه، وبتأويل بعض أقواله التلقائية، وحركاته اللاإرادية، وبتفسير بعض أحلامه.(٢)

لم يكن فرويد هو أول من تحدث عن العقل اللاواعي ،ولكنه سلط عليه أضواء الأهمية والشهرة حينما جعل منه النقطة المركزية لمذهبه . وقد قال فرويد:" إن أموراً ، ولاسيما المعيبة منها، يدفع الإنسان إلى داخل الجزء اللاواعي

---

(١) الكامن ما يلازم طبيعة الشيء وهو مقابل للمفارق والمتعالي نقول: جزاء الفعل كامن في الفعل، ومعنى هذا القول أن ما يلزم عن الفعل من عقاب أو ثواب ليس مضافاً عليه من الخارج، وإنما هو داخل فيه على سبيل التضمن. ومن قبيل ذلك قولهم في مذهب وحدة الوجود، إن حقيقة الله كامنة في العالم، وقولهم : إن الله هو السبب الباطني لجميع الأشياء لا العلة المؤثرة فيها من خارج.

(٢) والكامن عند (كانت) ما كان غير خارج عن حدود التجربة، فالمبادئ الكامنة هي المبادئ التي ينحصر تطبيقها في حدود التجربة الممكنة، وإذا طبقت، في المسائل المتعالية، مبادئ لا تصلح إلا للمسائل التجريبية، وقعت في الضلال، وكذلك إذا حكمت بأن الصادق عندك صادق في نظر كل إنسان.

(٣) والكامن هو الفعل أو السبب الذي ينحصر تأثيره في الفاعل نفسه، كالشعور، والعقل، والإرادة، فإن تأثيرها إذا انحصر في نفس الفاعل، ولم يحدث تغيراً في الخراج، سمي بالتأثير الكامن، بخلاف الفعل المتعدي الذي ينتقل تأثيره، إلى الخارج كإضرام النار، وقطع الخشب وتفجير الماء...الخ. راجع المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص ٢٢٢.

([1]) الكبت : في الفرنسية Refoulement، في الإنكليزية Repression. اصطلاح نفسي حديث مشتق من كبت الغيظ، تقول كبت فلان غيظه في قلبه، أي لم يخرجه.

ويطلق الكبت على العملية النفسية اللاشعورية التي يقصي بها المرء بعض تصوراته وعواطفه المؤلمة، ورغائبه المحرمة، عن ساحة الشعور الواضح ليخفيها في العقل الباطن أي في اللاشعور وتتم هذه العملية بغير إرادة، أو تتم في أكثر الأحيان بغير علم. فإذا تمت بإرادة وعلم سميت كبحاً لا كبتاً، تقول: كبح المرء جماح نفسه، أي قيد أفكاره ورغباته بإرادته، ولم يخرجها، فالفرق إذن بين الكبت والكبح أن الكبت عمل لاشعوري تلقائي، على حين أن الكبح مصحوب بالشعور والإرادة. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص ٢٢٣.

([2]) انظر :المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص ٢٥٧، المعجم الفلسفي، الحفني، ص ٥٥.

من العقل، وحيث "تتقيح " داخله، فينشأ المرض العصبي، ولذلك فإن الشفاء من هذا المرض مشروط بخروج تلك الأمور من الجزء اللاواعي من العقل إلى الجزء الواعي منه".(١)

وتعد نظرية التحليل النفسي من النظريات العامة التي امتدت إلى مختلف فروع علم النفس، فهي حاضرة في مبحث الشخصية، وفي علم النفس التربوي و الإكلينيكي، وغيرهما بل امتدت خارج علم النفس إلى جميع العلوم الاجتماعية، بل إلى مجالات الأدب والفن، وقل أن تجد مرجعاً في علم النفس لا تحتل فيه صفحات عدة، فهي مدرسة، واتجاه في التحليل، وطريقة في العلاج، أثرت في الأنظمة التربوية، والأساليب العلاجية في الحضارة الغربية بشكل خاص، والعالم بشكل عام.

وتعتبر أبحاث بروير وفرويد التي نشرت في مؤلفهما "دراسات في الهستيريا" الذي ظهر سنة ١٨٩٥ عادة بداية تاريخ التحليل النفسي، وفي سنة ١٩١٠ أسست الجمعية الدولية للتحليل النفسي. (٢)

والإنجاز الأساسي لفرويد في التحليل النفسي هو الكشف عن التعارض بين السلوك والشخصية، وتوصل فرويد إلى أسلوب التداعي الحر(٣) وتحليل الأحلام والتحويل والمقاومة بهدف الكشف عن الرغبات الغريزية (الجنسية أساساً) التي تم كبتها في الطفولة المبكرة، وحتى بعد التطورات اللاحقة في نظريات التحليل والعلاج النفسي والتي أكدت أهمية الصدمات التي حدثت في مجال العلاقات مع الآخرين، وليس في المجال الغريزي فحسب، فإن المبدأ ظل كما هو: إن

---

(١) علم النفس في مائة عام. فلوجل، ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٣) هو المبدأ الأساسي الذي انطلق من التحليل النفسي بعد حقبة العلاج بالتنويم المغناطيسي، ويقصد أن يقول المريض كل شيء في تلقائية دون انتقاء أو تعمد، مهما كان تافهاً أو مستهجناً. انظر :التحليل النفسي ماضيه ومستقبله، ص ٦٣٨.

ما تم قمعه هو الرغبات والمخاوف الصدمية المبكرة، وكذلك المتأخرة منها، والسبيل للشفاء من الأعراض أو الأمراض بشكل عام هو الكشف عن هذه الأمور المكبوتة. [1]

فالتحليل النفسي هو طريقة في العلاج وفكرته الأساسية استدراج مكبوتات اللاشعور للظهور على سطح الشعور عن طريق التداعي الحر، والهدف هو مساعدة المريض على الوعي بها، وحل الصراعات الناشئة عنها، وإعادة بناء الشخصية.

ويرى أنصار التحليل النفسي أن الصراع هو المظهر المسبب للعصاب النفسي (أو المرض النفسي الذي لا ينفصل فيه المريض عن واقعه) عندما يتم حله بطريقة مخطئة، والتحليل النفسي هو العملية التي تعيد حله بطريقة سليمة.

وقد فسرت مدرسة التحليل النفسي الذهانّ (الذي ينفصل فيه المريض عن واقعه) بمثل ما فسرت به العصاب، غير أنها اعترفت بأن العلاج بالتحليل النفسي لا يجدي في الحالات الذهانية وحالات الضعف العقلي؛ لأن التحليل النفسي يتطلب مستوى من الذكاء وفهم الواقع لا يتوفران في هذه الحالات التي تتميز بالانفصال عن الواقع أو بسوء فهمه. [2]

(1) انظر : التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ٢١٣.

(2) انظر :التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ٣٠٧.

وفكرة التحليل النفسي قائمة على ازدواجية الظاهرة النفسية، فما نراه يعبر عما لا نراه، ورغم أن فرويد يميز نفسه عن الآخرين بأنه يأخذ الإنسان على أنه كائن بدائي غريزي، والبدائي كطفل، والطفل كمنحرف شرير، إلا أن المرجعية الداروينية[١] ودمج عناصرها في تعريف الإنسان قد أثرت فيه.

أما تاريخ الإنسان على الأرض فيميز فيه فرويد ثلاث مراحل:

أ-**مرحلة إحيائية**: أو مرحلة الاعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في آن واحد، عندما كان يعتقد الإنسان في القوة الكاملة لقواه الفكرية.

ب-**مرحلة دينية** : حيث ينسب القوة كلها للآلهة (الذي يحصر التطور في ممر النرجسية إلى تثبيت الليبيدو[٢] في الأبوين).

ج- **مرحلة علمية** : عندما اعترف الإنسان بصغره، وبلا جدوى الوهم الديني وضرورة النظر إلى الموت كسائر الضرورات الطبيعية.

ويكاد هذا التقسيم الثلاثي الذي قال به فرويد يلخص النظرة التقليدية للعلم كما انعكست في علم النفس، ميز فيه مرحلة لاهوتية، وأخرى ميتافيزيقية، وثالثة علمية. [٣]

([١]) الداروينية : مذهب داروين، وتطلق على :الداروينية مذهب التحول أو التبدل، وهو القول أن الأنواع تنشأ بعضها عن بعض، ولاسيما النوع الإنساني، فهو منحدر عن الأنواع الحيوانية التي ترجع إلى أصل واحد أو عدة أصول. وتطلق أيضاً على القول إن تبدل الأنواع ناشئ عن الانتخاب الطبيعي، أي أن تبدل الأنواع ناشئ عن التكيف بوساطة الممارسة والوراثة. المعجم الفلسفي، ص ٥٥٦.

([٢]) الليبيدو :مصطلح لاتيني الأصل يشير إلى الرغبة أو الشهوة. انظر :التحليل النفسي ماضيه ومستقبله، ص ٦٤٧.

([٣]) انظر :التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ١٢٧.

ثانياً- مبادئ الحياة النفسية عند فرويد:

الفكرة الأساسية التي يقوم عليها مذهب فرويد هي أن الغرض الأساسي من كل فعل يقوم الإنسان هو تحصيل أكبر لذة وجعل الألم أقل ما يمكن. فهو يرى أن السلوك الإنساني يتجه نحو تحصيل أكبر لذة، أو إشباع الحاجات الحسية.

والطفل يسعى إلى تحصيل اللذة بغض النظر عن نتائجها. وكلما كبر تعلم كيف يضبط سلوكه بما يواجهه من حقائق، فيحقق أكبر لذة مع أقل ضرر ناجم عنها. وهذا الاتجاه يسمى "مبدأ الواقع" وهو ثمرة نضوج قدرته على ضبط نفسه. وعملية الضبط، والتخطيط، والتكيف مع الواقع. وكلما تقدم الطفل في السن وصار مراهقاً تتغير قيمه الأخلاقية.

وفي العادة يوجد أكثر من دافع لتوجيه أي فعل، ومن الدوافع ما هو حاضر، ومنها ما هو ناشئ عن تجارب ماضية. وتنشأ المنازعات حين يقع أحد هذه الدوافع في تناقض وتنازع مع باقي الدوافع.

والدوافع، وتجارب الحياة، والموقف الحالي، والقيم الأخلاقية، وضروب بذل الطاقة، والتحريمات كلها معاً لتكوين الشخصية. (١)

ثالثاً- أهم مفاهيم نظرية التحليل النفسي:

اهتمت مدرسة التحليل النفسي بدراسة الشخصية من حيث سماتها ومكوناتها وتفاعلها مع العالم الخارجي واستواؤها وانحرافها. ويذهب "فرويد" إلى الشخصية تتكون من مكونات ثلاثة هي:

---

(١) انظر :موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي (١٢٣/١).

أولاً: الهو أو الجانب الغرزي:

ويتمثل في مختلف الجوانب الغريزية العمياء والطاقة الحيوية والحيوانية التي يولد الفرد مزوداً بها، فهي تشمل الدوافع الفطرية – الجنسية والعدوانية وغيرهما، قبل أن تهذب وتحور من خلال الثقافة والمجتمع – وينطلق الهو من مبدأ اللذة ويحاول الإنسان إرضاء هذه الدوافع سواء في دنيا الواقع أو في دنيا الخيال.

ب-الأنــا:

هو الجانب الواقعي للشخصية الذي يتكون نتيجة لاتصال الطفل بالعالم الاجتماعي الواقعي من خلال جوارحه المختلفة. فالطفل يرى النار تتوهج فيحاول لمسها فيلسع، فيعرف أنها خطر يجب تجنبه، لذلك يعرف الأصوات ويميز بينها. [١]

ج-الأنا الأعلى أو الفوقاني:

هو ما يطلق عليه تجاوزا الضمير أو الرقيب النفسي، وهو جهاز يتكون من أوامر الوالدين وما يتلقاه الطفل عنهما من نواة وأفكار عن الخير والشر والفضيلة والرذيلة، وهو المستشار الخلقي الذي يكافئ الشخص ويعاقبه إذا أخطأ. وهو جهاز لاشعوري يبدأ تكوينه من سن مبكرة. فهو جملة القيم والمعايير والمعتقدات والمبادئ الخلقية التي توجه السلوك والتي يعتمد عليها الفرد في تقييم دوافعه ونياته وأعماله، وهو جانب الشخصية الذي يعمل وفقاً للمبادئ المثالية والذي ينقد ويعاقب ويكافئ ويوجه.

---

(١) انظر :موسوعة الفلسفة، بدوي (١/١٢٤) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ص ١٣٩، التحليل النفسي ماضيه ومستقبله، ص ٢٤٠.

والواقع أن وظيفة الأنا التوفيق بين الهو والأنا الأعلى والواقع، فعليه إرضاء دوافع الفرد الفطرية في إطار ما يسمح الضمير من جهة، وقواعد المجتمع وقيمه ومبادئه من جهة أخرى، وبمقدار قوة الأنا واتزانه تتكامل الشخصية، أما إذا ما فشل في ضبط الهو، أو أسرف في المثاليات على حساب الواقع حدث اضطراب الشخصية وظهر ما يعرف بالمرض النفسي.

وإن كان فرويد يعتقد أن "الأنا الفوقاني" كثيراً ما يؤثر في الشخص دون أن يكون واعياً بهذا التأثير. والسبب في هذا أن كثيراً من القيم الاجتماعية قد تعلمها الطفل قبل أن يستطيع فهمها وتعلقها. [1]

والهو بدوافعه الوحشية، لا شعوري، وهذه المادة اللاشعورية تسعى للتعبير عن نفسها على نحو غير مباشر. فمثلاً الأحلام وهفوات اللسان هي تجليات مقنعة لمضمونات لا شعورية أفلتت من "الأنا" وصارت علنية. وفي حالة الأحلام، فإن التخلف غير المباشر من المواد الاندفاعية تصرف مواد كان من شأنها لو بقيت حبيسة أن تحدث اضطراباً في النوم وفي نشاطات أخرى.

وإلى جانب الشعور واللاشعور هناك ظاهرة يسميها فرويد باسم "ما قبل الشعور" وهو المادة التي يستطيع أن يتذكرها بحسب إرادته، لكنها لم تكن في وعيه، وانتباهه طوال الوقت. وهذه المادة لا تبرز من أجل مراقبة الجهاز العضوي، بل بالأحرى من أجل التمكين له من العمل على نحو أكثر فاعلية. ذلك لأن وعي الإنسان بكل قصد وكل ذاكرة باستمرار قد يتدخل في نشاط الإنسان ويعيقه، لكنه لابد من أن تكون هذه المعلومات ميسورة للجهاز العضو حين يحتاج إليها.

---

(1) انظر :الإسلام وقضايا علم النفس، ص ١٨٠، المعجم الفلسفي، ص١٤٠.

وهكذا كان فرويد يرى أن العقل يتأثر بدوافع حيوانية أولية، ويراقب من قبل قيم أخلاقية ويتكيف وفقاً لمتطلبات الواقع. [١]

المبحث الثاني

منهج العلاج النفسي والظواهر التي كشفها

يقوم منهج العلاج النفسي على ثلاث دعائم:

(١) تداعي الأفكار الحر الذي يسمح للمريض باسترجاع بعض الذكريات المنسية التي تشير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى خبراته المتصلة بأعراض مرضه.

(٢) تحليل الأحلام بتفسير صورها ورموزها في ضوء شخصية المريض وظروف حياته.

(٣) التحويل أي العلاقة العاطفية التي تنشأ بين المريض والمحلل الذي يقوم في أثناء العلاج بدور الذين كانوا يحيطون بالمريض في أثناء طفولته. ويتطور التحويل متخذاً عدة صور. كالحب والثقة والإعجاب (تحويل إيجابي) ، أو الكراهية والعدوان (تحويل سلبي). فيقوم المحلل في الوقت المناسب بتأويل المواقف التحويلية للمريض، ولا يجدي التحليل النفسي إلا مع المرضى القادرين على معاناة المواقف التحويلية. [٢]

([1]) انظر :موسوعة الفلسفة، بدوي (١/١٢٤).

([2]) انظر :الموسوعة العربية (١/٤٧٩)، أصول علم النفس العام، أحمد محمد عامر، ص ١٩١.

الظواهر التي كشفها منهج التحليل النفسي:

(١) الجنسية الطفلية التي تمر طاقتها (ليبيدو) بالمراحل الفمية والشرجية والقضيبية، لتصل بعد فترة كمون إلى المرحلة التناسلية في أثناء المراهقة، حيث تتجه الليبيدو نحو هدفها وموضوعها. وتوقف التطور الجنسي عند إحدى المراحل أو تعثره أو انحرافه، يحول دون النضج الجنسي والعاطفي. ويؤدي إلى المرض.

(٢) الموقف الأوديبي الذي تتجه فيه الطاقة الجنسية لدى الطفل نحو شخص من الجنس الآخر (الأم لدى الابن والأب لدى البنت) . والتثبيت داخل الموقف الأوديبي، وعدم تصفيتها بتقمص الابن لشخصية أبيه، والبنت لشخصية أمها، يؤدي إلى تكوين عقدة أوديب.

(٣) الدور الأساسي الذي تؤديه الطاقة الجنسية عند تثبيتها أو انحرافها في نشأة الأمراض النفسية والعقلية. ففي الهستيريا التحويلية تتحول الطاقة الجنسية المكبوتة إلى أعراض جسمية.

وإذا وقع الطفل في مشاكل خطيرة خلال أية مرحلة من هذه المراحل، فإن المهارات الاجتماعية التي يكون قد تعلمها فقيرة أو معدومة بتاتاً، وربما يتعثر ويعرج خلال المراحل الأخرى ويرتد إلى الخلف، وربما يعود إلى مهارات أتقنها من قبل على نحو أفضل حين كان واقعاً تحت الضغط. [١]

والعصابات والأمراض النفسية psychoses هي ارتدادات في أوقات الضغط إلى مراحل سابقة في النمو أمكن حلها على نحو أفضل. والضغط المؤدي إلى الارتداد ينشأ عن نزاعات بين الأشخاص حول قهر دوافع محرمة. إن الدافع لما يكن مقبولا فإنه اندفع خلفاً إلى اللاشعور، وعبر عن نفسه، بطريق غير مباشر فقط، بواسطة سلوك

([١]) انظر :موسوعة الفلسفة، بدوي (١/١٢٥)، الموسوعة العربية (١/٤٩٧)

وسط compromise يمكن من شكل مقنع من أشكال الإرضاء، وفي الوقت نفسه يرضي التحريمات الأخلاقية والاجتماعية.

والطريق الذي سلكه فرويد سلكه وحده. ولما احتل النازي النمسا في مارس سنة ١٩٣٨ ارتحل فرويد إلى لندن، حيث توفي في السنة التالية في ٢٣ سبتمبر. [١]

المبحث الثالث

نقد نظرية التحليل النفسي

لقد واجهت نظرية التحليل النفسي صعوبات أدت إلى إدخال تعديلات كثيرة عليها، غير أن بعض هذه الصعوبات ظل يلازمها رغم تلك التعديلات، وهذه الصعوبات تتعلق بالمنهج والنموذج والتطبيق.

فأما **المنهج**: فقد واجهت النظرية ضعف العلاقة بين مكوناتها، والشواهد الواقعية التي تقبل على أساسها النظريات، فمقولات التحليل النفسي تفتقر إلى التأييد التجريبي، والشواهد المتجمعة محايدة يمكن أن تفسر بالنظرية وبغيرها.

فمن حيث الشواهد التي ساقها فرويد لتأييد مقولاته النظرية، نجد حالات إكلينيكية محدودة وغير سوية في مجتمع فينا الفكتوري، فهل هذه الحالات تكفي لتعميم عقدة أوديب، وتعميم فترة الكمون الجنسي وتعميم المرحلة الفمية والشرجية والقضيبية على سائر الناس في جميع المجتمعات مع ما نعرفه من اختلاف الحضارات.

(١) انظر :موسوعة الفلسفة، بدوي (١/١٢٥).

لم يكن فرويد مهتماً بالاتساق النظري قدر اهتمامه بالملاحظات فجعل من نظرياته أطراً مؤقتة لتدوين ملاحظاته وتصنيف معلوماته، غير أن هذه الوقائع الملاحظة نفسها لا تؤيد التفسيرات التي أعطيت لها. فإذا أخذنا غيرة الابن على أبيه في الطفولة المبكرة، فالشواهد تدل على أن ذلك يقع بسبب نوع المعاملة التي يلقاها الابن أو البنت، وعندئذ قد تكون الغيرة من الأب أو الأم أو أي شخص آخر.(١)

إن المشكلة العامة في عدد من النظريات النفسية أنها أرادت أن تفسر أعقد ظاهرة على الإطلاق بأقل عدد من العوامل، بل بعامل وحيد أحياناً، فالدافع الجنسي يتعرض للنضج، وله في كل مرحلة من مراحل العمر تأثير على الحياة النفسية، ولكن هل الخبرة الجنسية هي المكون الأول للشخصية الإنسانية منذ بداية تكونها إلى أن تكتمل؟ وهل السلوك السوي كله ليس سوى إعلاء للغرائز، والسلوك المرضي كله ليس سوى نكوص؟ لماذا يفترض التحليل النفسي دائماً إن الدوافع الشعورية للإنسان السوي ليست هي سبب تصرفاته؟

ولقد كان الإصرار على تضخيم دافع الجنس سبباً في الخلاف الذي وقع في وقت مبكر بين فرويد وبعض زملائه، حتى أولئك الذين احتفظوا بفكرة الدوافع اللاشعورية، ومن هؤلاء الفرد أدلر كان من زملاء فرويد الأوائل، ثم انفصل عنه بسبب الاختلاف على عدة مسائل نظرية هامة، وأسس ما عرف بعلم النفس الفردي.

"وأشد ما رفضه أدلر من نظرية فرويد هو تأكيده على الدافع الجنسي أنه دافع أساسي، سواء بالنسبة للطفل أو بالنسبة للراشد، وثانياً: رفضه لفكرة أن الغرائز نفسها هي محددات السلوك".(٢)

---

(١) انظر :التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ٢١٥.

(٢) انظر : علم النفس الإكلينيكي، جوليان روتر، س ١٤٣.

والذي أيدته التجارب المتنوعة هو أن السلوك منذ الولادة يكون مدفوعاً بشبكة من العوامل، فالرضاعة مثلاً ليست سلوكاً مدفوعاً بدافع الجنس كما قال فرويد، بل بدوافع متفاعلة ترجع إلى التشبث بصفة عامة، أي أن الطفل يمتص الثدي بدافع الجوع ثم يتعلم أن يربط بين الامتصاص والتغذي، وسلوك الإخراج ليس مدفوعاً بدافع الجنس، بل هو سلوك جزئي ضمن سلوكيات أخرى عديدة يتعلمها الطفل لينسجم بها في الحياة الاجتماعية، فالدوافع – بيولوجية واجتماعية – تتفاعل في كل مرحلة لصنع السلوك يتفاعل آخر مع تاريخ الشخص وإرادته.[1]

وأما **التطبيق**: فقد كان لنظرية التحليل النفسي تأثير على مفهوم الإنسان الغربي لنفسه، ففرويد واحد من ثلاثة غيروا نظرة الإنسان الغربي إلى نفسه، الأول كبرنيك عندما أفهمه أن الأرض ليست مركز الكون، والثاني داروين عندما أفهمه أنه ليس استثناء في المملكة الحيوانية، والثالث فرويد عندما أفهمه أنه ليس سيداً في منزله، وإنما هو حارس يحرس الدوافع اللاشعورية أن تفلت فتسبب من السلوكيات ما يأباه المجتمع.

وقد حاول بعض المحللين النفسيين بعد فرويد، بإعادة التوازن إلى النظرية "فقاموا حديثاً جداً بالتأكيد الشديد على الأنا ودوره في الحياة النفسية بما فيها المرض النفسي، ويؤكدون على محاولة الفرد مواجهة مطالب الواقع.

وأما النظرية القائلة بأن السعادة هي أن ينطلق الإنسان مع غرائزه – وبما أن الحضارة لا تسمح بذلك فهي عدو للإنسان، وإذا كانت غرائز الإنسان تصطدم بالمجتمع لا محالة فتؤدي إلى الكبت، فهذا الإنسان وجد ليشقى، وأقصى ما يطمح إليه أن يقيم هدنة بين الهو والأنا الأعلى – فإن هذه النظرة ساهمت في الثورة الجنسية والتحلل

([1]) انظر : التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ٢١٥.

الأخلاقي الذي ساد في أوربا وأمريكا، وأصبح الخوف من الكبت والعقد النفسية مبررات "علمية" للفوضى الجنسية، وأصبح المحللون والمعالجون "ينصحون" الشباب والفتيات بإقامة العلاقات الجنسية بكل حرية لأجل تحقيق الصحة النفسية.

أما داخل العيادات "فقد أدت نتائج حركة التحليل بتأكيدها على اللاشعور إلى تعقيد مشكلة التشخيص تعقيداً ضخماً، فقد تضاءل معنى الأعراض وأصبح على الإنسان أن يتجاوزها سعياً وراء الصراعات الداخلية، ولم يعد في إمكان الإنسان أن يكتشف المظاهر الهامة لدى الفرد عن طريق طرح أسئلة مباشرة، فليس من المحتمل فقط أن يرغب الفرد في إخفاء المعلومات بطريقة لا شعورية، بل إن منهج البحث وفقاً للتحليل النفسي يتضمن أيضاً أن الفرد قد لا يكون واعياً بمشكلاته الخاصة، وأصبح على المنهج في البحث أن يضع طرقاً دقيقة وبارعة لكي يمكنه اكتشاف هذه المشكلات. [1]

وأصبحت طريقة العلاج وفق التحليل النفسي طويلة جداً وباهظة التكاليف فلا يمكن استخدامها مع معظم الناس، ولا تلاءم أنواعاً من المرضى، وكثيراً ما تسفر عن تحسن طفيف أولا تسفر عن شيء. وقد تمت مراجعات للنظرية الفرويدية على يد المدارس الفرويدية الحديثة، ولا يمكن أن تصنف النظرية ضمن تاريخ علم النفس، فلا زال لها أنصار وأتباع، ولا زالت تصدر باسمها مجلات ودوريات، والتحليل النفسي الآن لا يطلق على النظرية الكلاسيكية وحدها، وككل نظرية عندما يعجز الإطار النظري عن استيعاب الشذوذات والحقائق الجديدة، تنهار وتبقى الحقائق

([1]) انظر :علم النفس الإكلينيكي، جوليان روتر، ص ٨٣.

التي نمت في إطارها، ونظرية التحليل النفسي افتتحت منطقة شاسعة كان يسار إليها بإيجاز هي منطقة اللاشعور، وهذه إضافة في دراسة السلوك.

كما كان للتحليل النفسي دور في تطوير الأساليب العلاجية القائمة على الحوار المفتوح والتفريغ الانفعالي وإعانة المريض على معرفة أسباب مرضه للتغلب عليها، وهي وسائل محايدة يمكن أن تستعمل بغض النظر عن النظرية التي توجه تفسير المعطيات الناتجة عنها. (١)

التحليل النفسي في ميزان الإسلام: (٢)

تحدث فلاسفة اليونان عن العقل والروح والنفس، ورتبوها حسب صفائها وعلو جوهرها، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها، لأن جوهر العقل المطلق (حسب تصورهم) هو الله سبحانه والعقل الإلهي عندهم هو العقل الفعال المنزه عن المادة والهيولي وعنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنفعل ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف، وعندهم الروح أقرب إلى عنصر النور والنفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب.

وإذا كانت الروح هي العنصر الخالد في الإنسان، وهي الجانب الخافي عن مداركنا الحسية، واستأثر الله تعالى بعلمه، ولا قدرة للعقل الإنساني المحدود عن الإحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة والتقريب، قال تعالى **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾**. [الإسراء ٨٥]

(١) انظر :العلم في منظوره الجديد، أغروس وستانسيو، ص ٨٣.

(٢) استقيت مادة هذا العنوان بتصرف من المصادر التالية: التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، ص ٣١١ وما بعدها، الإسلام وقضايا علم النفس الحديث، ص ٥٥ وما بعدها.

أما العقل والنفس في بيان القرآن الكريم فالراجح أن النفس أقرب إلى الطبع والقوة الحيوية التي تشمل الإرادة كما تشمل الغريزة وتعمل واعية كما تعمل غير واعية، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم، والقوة التي يزهقها الفتل، والقوة التي تحس النعمة وتلهم الفجور والتقوى وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة، فهي القوة التي تعمل وتريد مهتديه بهدي العقل أو منقادة لنوازع الطبع وتوضع لها الموازين بالقسط يوم القيامة. قال تعالى: (**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا والَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**) [سورة الزمر ٤٢]. (**وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا**) [سورة النساء ٢٩].

ولكن الإنسان أعم من النفس لأنه مسئول عن نهبها عن الهوى: (**وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**). [سورة النازعات: ٤٠-٤١].

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي "الذات الإنسانية تدل كل قوة منها على الذات الإنسانية في إحدى حالاتها ولا تتعدد الذات الإنسانية بأي صورة من الصور لأنها ذات نفس أو ذات عقل أو ذات روح فإنما هي إنسان واحد في جميع الحالات.

وقد ذكرت النفس في القرآن الكريم بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون:

أ-فقوة الدوافع الفطرية الغريزية الموروثة تقابل النفس الإمارة. (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**) [سورة يوسف ٥٣].

ب–وقوة النفس الواعية تقابل النفس الملهمة: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [سورة الشمس ٦–١٠].

ج–قوة مراقبة الله سبحانه وتعالى تقابل النفس اللوامة، وهي النفس التي يقع منها الحساب، كما يقع عليها، وجاء ذكرها من أجل ذلك مقروناً بيوم القيامة في سورة القيامة.

﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ (١) ولا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة ١–٢].

د–النفس الموصوفة بالإبصار والعلم بمواقع الأعذار:

﴿**بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾. [القيامة ١٤–١٥].

هـ–وقوة الإيمان والثقة التامة في الله أو الغيب تقابل النفس المطمئنة.

﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً**﴾ [سورة الفجر ٢٧].

و– وفي كل موضع من هذه المواضع تذكر **النفس الإنسانية بعامة** هذه القوى فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الإنسان في القرآن الكريم.

﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾. [سورة المدثر ٣٨].

فالإنسان — طبقاً للتصور القرآني الكريم يعلو على نفسه بعقله ويعلو على عقله بروحه. فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله ... وحق العقل أن يدرك الحقيقة المطلقة إلا من خلال الإيمان المطلق بالله الخالق البارئ المصور.

ويقوم **التحليل الإسلامي للإنسان** على أنه مكون من روح وجسد. والإيمان بالروح إحدى العقائد الغيبية في القرآن الكريم، وهذه العقائد الغيبية أساس عميق من أسس التدين في كل الديانات السماوية، ويمكن القول أن ميزة العقائد الغيبية في القرآن الكريم أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها، ولا تبطل التكليف بخطاب العقل المسئول، لأن الإسلام دين الفطرة تنفق مبادئه وأسسه مع أساسيات التفكير السليم.

والإسلام هو في واقع الأمر إسلام الأمر كله لله الخالق المعبود وحده لا إله إلا هو سبحانه. والروح والجسد في القرآن الكريم متكاملان يمثلان معاً الذات الإنسانية، وتتم بهما الحياة، ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس الجسد حقاً ليومي حقوق الروح، كما لا يجوز له أن يبخس حقوق الروح من أجل أن يوفى حقوق الجسد وهذه هي التعادلية الإسلامية الدقيقة في معالجة مكونات البناء الإنساني.

والقرآن الكريم يعلم المؤمن أن يكسب الطيبات من صنع يده، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجتنبها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ) [البقرة ١٧٢].

ومن رحمة الله سبحانه وتيسيره على العباد أن جعل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة. ولعل في هذا رد حاسم على المدرسة الفرويدية التي تزعم أن الدين محبط لنزعات الإنسان ويسبب له الإحباط والأمراض النفسية نتيجة قمعه للشهوات والزينات. فهذا فهم زائف للدين.

والله سبحانه وتعالى لا يحرم الزينات والطيبات، وإنما يحرم الفواحش والإثم والظلم وكل ما يؤدي إلى التهلكة كالشرك بالله سبحانه.

﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿**ولَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ**﴾ [الأعراف ١٠].

وهكذا يحقق الإسلام التعادلية بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد أو مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، فلا صراع ولا تناقض ولا انفصام.

والاعتراض الأساسي على نظرية فرويد في الشخصية أنه قصر الجانب الفطري على الدوافع الحيوانية، وجعل العقائد والقيم أشياء خارجية مفروضة على الإنسان تتعارض مع نزعاته الفطرية، وهذا خطأ فادح، ذلك أن الإنسان يتميز عن الحيوان بجانب روحي سام ﴿**ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر ٢٩].

ويقول تعالى في الحديث القدسي:(**خلقت عبادي حنفاء**)[1] ويقول تعالى ﴿**وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**﴾ [الأعراف :١٧٢].

وقد كشفت الدراسات أن النزعة للتدين نزعة فطرية عند الإنسان بدليل عدم خلو أي مجتمع قديم أو حديث بدائي أو متحضر من شكل ما من أشكال الدين وإن كانت أغلب المجتمعات انحرفت عن الفطرة لأنها انحرفت عن الإسلام، وهذا هو أثر التربية والصياغة الثقافية للفرد في تشويه الفطرة السليمة.

(1) مسند أحمد بن حنبل (١٦٢/٤).

والواقع أنه يستحيل استحداث النزعة الدينية لدى الإنسان ما لم يكن لديه استعداد فطري لتقبلها، وإلا لأمكن استحداثها لدى الحيوانات ذات الحجم. وهذا مستحيل، لأنها ليس لديها الاستعداد الفطري أصلاً لتقبلها فمع الاعتراف بأثر البيئة فإن الإسلام يؤكد على عدة حقائق هي :

أ–فطرية النزعة إلى الوحيد.

ب–أهمية البيئة الاجتماعية في الحفاظ على سلامة الفطرة.

ج–رحمة الله بعباده حيث لا يفرض عليهم الثواب والعقاب بغير معرفة.

فالهداية السماوية والرسالات المتتالية قصد بها هداية البشر إلى الصراط المستقيم. فإذا كان الله يلقن الناس وهم بعد في عالم الذر التوحيد، فإنه أرسل لهم الرسل والكتب توضح لهم معالم الطريق (**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**). [المائدة ١٥–١٦].

ولقد جعل فرويد الأساس الأول للتكوين الإنساني الفطري الغرائز (الجنس والعدوان) وبهذا سلب الإنسان كل القيم والجوانب العليا التي استحق من أجلها الخلافة في الأرض.

فالإنسان خليفة في الأرض كرمه الله سبحانه وتعالى وأرشده وهداه وبين له معالم الطريق، بعث من أجله الرسل والكتب، والملائكة تحيط بالمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وعدهم بالخير في الدنيا والآخرة. وفرق شاسع بين هذا التصور الرفيع وبين التصور الإغريقي الذي انخفض بالإنسان وبالآلهة إلى أسفل سافلين (صراع – حقد –كراهية – انتقام ... الخ.

وقد زود الله سبحانه الإنسان بطاقات عديدة أهمها طاقة الإيمان والقدرة على التوحيد، وهو مستعد بشكل فطري لتلقي كلمات الله وتلقي هدايته سبحانه. ونقطة الضعف عند الإنسان هي الشهوة. وهي الطريق الذي ينفذ منه الشيطان إلى نفس الإنسان، غير أن الشريعة الإسلامية نظمت أسلوب ممارسة الإنسان لشهواته في إطار ما هو مشروع وبعيداً عن المحرمات والمؤمن كيس فطن، يستنير بنور القرآن الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

يقر الإسلام أن كل مولود يولد على الفطرة وهي السلامة من، فهذه الفطرة التي يولد عليها الناس سوية سالمة من الانحرافات والمرض طارئ عليها في مرحلة من المراحل وله أسباب، والعلاج في الإسلام يهدف إلى رد هذه النفس إلى سواء الفطرة، فإذا كان المرض الذي أصاب هذه النفس عضوياً ردت إلى أصل الخلقة السليمة ولذلك علاجه المناسب، وإذا كان المرض الطارئ نفسياً ردت إلى سلامة الفطرة الأولى ولذلك علاجه المناسب.

ورد الجسم إلى سلامته ورد النفس إلى سوائها يجب أن يتم بتقوية المناعة الذاتية للشخص، فمصطلح المناعة الجسمية والنفسية مهم جداً في فهمنا للبديل الإسلامي في هذا المستوى من العلاج النفسي.

والمناعة الجسمية كما نعلم إما طبيعية فطرية ومثالها: وجود الكريات البيضاء في الدم، وإما مناعة مكتسبة طبيعياً ومثالها: دخول الميكروبات إلى الجسم وإثارتها لهذه الكريات حتى تفرز مضادات حيوية، وإما مناعة مكتسبة صناعياً ومثالها: التلقيح بمكروب ضعيف، أو حقن مصل مأخوذ من دم حيوان ثم تلقيحه بذلك المكروب، وأفرزت أجهزة مناعته المضادات الحيوية التي تقاومه.

والأمراض النفسية كالأمراض الجسمية يجب مواجهتها بالأنواع الثلاثة من المناعة، يقوم الفرد أولاً باستخدام مناعته الفطرية للوقاية من المرض قبل الإصابة به، فيستعين بما أتاه الله من قدرة على التفكير وحل المشكلات، وما

يسر له من علم وتجربة في الحياة، ويقوم ثانياً باستخدام مناعته المكتسبة طبيعياً، أي التي تكونت بعد الإصابة بهذا المرض أول مرة، فيقاومه بها، وفي هاتين الحالتين تكون الاستشارة النفسية ثانوية في التغلب على الاضطرابات الحاصلة.

فإذا عجزت مناعة الفرد الفطرية والمكتسبة طبيعياً عن المقاومة، حينئذ يأخذ مناعة مكتسبة صناعياً في صورة استشارة نفسية أو علاج نفسي (تلقين أفكار وتدريب على عادات) ولكن الهدف يبقى هو تكوين مناعة نفسية لم تتكون بشكل كاف بالطريقة الفطرية والمكتسبة طبيعياً.

وقد افترض علماء المناعة النفسية في العصر الحديث وجود جهاز نفسي هو جهاز أ.ب فيتر يتكون من الاعتقادات والاتجاهات والمشاعر والآمال والتفكير والخبرات والذكريات.

ويعمل هذا الجهاز بأربعة أنماط: اثنان منهما يولدان أفكار ومشاعر الشقاء والقلق والتوتر، هما النمط الغضوب يضم أفكار ومشاعر الغضب والسخط والعجلة والعداوة والحسد والحقد.

والنمط اليؤوس يضم أفكار ومشاعر الذنب والعجز والانهزامية واليأس، أما النمطان الآخران فيولدان أفكار ومشاعر السعادة وهما النمط الصبور يضم أفكار التحمل والصبر والشجاعة والعفة والحكمة، والنمط الودود يضم أفكار التسامح والرضا والثقة والتفاؤل والمودة.

وتهدف رياضة النفس إلى التحكم في جهاز ب-أفيتر، وتحويل أفكاره، ومشاعره من النمط الغضوب إلى النمط الصبور، ومن النمط اليؤوس إلى النمط الودود ففي هذه الرياضة تطعيمات نفسية تنشط جهاز المناعة النفسية.

وفكرة هذا الجهاز موجودة في التفسير الإسلامي للخواطر بنوعيها الحسن، ولكنه يزيد عليها ببيان مصدر هذه الخواطر، فإذا كان مبدأ الاعتقادات والاتجاهات والمشاعر والأفكار والخبرات والذكريات هو الخواطر، فإن مصدر هذه الخواطر في التصور الإسلامي إما إلهامات من الملك إذا كانت خواطر خير، أو وساوس من الشيطان إذا كانت خواطر شر وسوء.

وطريقة الإقناع بالتحول من هذا النمط إلى ذاك، أو الاستجابة لهذا النوع من الخواطر دون الآخر هو الذي يميز البديل الإسلامي في العلاج بالإرشاد والتوجيه النفسي.

إن مشكلة العلاج بالحوار والتوجيه هو الافتقار إلى وسيلة تدفع المريض إلى تنمية جهاز مناعته النفسي، بينما يمتلك المعالج المسلم وسيلة فعالة هي ربط هذه "الرياضة النفسية" بمفهوم "المجاهدة" الإسلامي، حيث يغدو الإبقاء على المرض النفسي ومساكنته مخالفاً لشريعة الإسلام (الإدمان – الشذوذ – الجريمة – الوسوسة).

إن الذي يعطي تفوقاً ساحقاً لأسلوب الحوار والتوجيه في البديل الإسلامي هو أنه لا يؤسس الأفكار التي يدعم بها إرادة المريض على أساس الصحة والمرض فحسب بل على أساس البر والإثم أيضاً.

والتقاء المريض والمعالج على مبادئ عقدية ضمانة كبيرة لنجاح العلاج في مرحلته الأخيرة والأساسية عندما ينصرف المريض لينفذ التوجيهات التي تلقاها من العلاج.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وبعد فإني أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث فيما يلي:

– يعد فرويد رائد التحليل النفسي، وهو اصطلاح حديث أطلقه فرويد على إحدى طرق البحث والعلاج في علم النفس المرضي، لدراسة أعماق الحياة النفسية وعلاج اضطراباتها. وقد انتشر هذا الاصطلاح في علم النفس الحديث، حتى أطلق على جميع التقنيات المستعملة في دراسة الأفعال النفسية شعورية كانت أو لاشعورية.

– أهم أغراض التحليل النفسي سبر الحياة اللاشعورية، والكشف عن العقد الكامنة في الشعور بواسطة أسئلة مباشرة تلقى عليه، وبتأويل بعض أقواله التلقائية، وحركاته اللاإرادية، وبتفسير بعض أحلامه.

– الفكرة الأساسية التي يقوم عليها مذهب فرويد هي أن الغرض الأساسي من كل فعل يقوم به الإنسان هو تحصيل أكبر لذة وجعل الألم أقل ما يمكن. فهو يرى أن السلوك الإنساني يتجه نحو تحصيل أكبر لذة، أو إشباع الحاجات الحسية.

– الإنجاز الأساسي لفرويد في التحليل النفسي هو الكشف عن التعارض بين السلوك والشخصية، وتوصل فرويد إلى أسلوب التداعي الحر وتحليل الأحلام والتحويل والمقاومة بهدف الكشف عن الرغبات الغريزية (الجنسية أساساً) التي تم كبتها في الطفولة المبكرة.

- واجهت النظرية ضعف العلاقة بين مكوناتها، والشواهد الواقعية التي تقبل على أساسها النظريات، فمقولات التحليل النفسي تفتقر إلى التأييد التجريبي، والشواهد المتجمعة محايدة يمكن أن تفسر بالنظرية وبغيرها.

- كان الإصرار على تضخيم دافع الجنس سبباً في الخلاف الذي وقع في وقت مبكر بين فرويد وبعض زملائه، حتى أولئك الذين احتفظوا بفكرة الدوافع اللاشعورية، ومن هؤلاء الفرد أدلر كان من زملاء فرويد الأوائل، ثم انفصل عنه بسبب الاختلاف على عدة مسائل نظرية هامة، وأسس ما عرف بعلم النفس الفردي.

- ساهمت نظرة فرويد في الثورة الجنسية والتحلل الأخلاقي الذي ساد في أوروبا وأمريكا، وأصبح الخوف من الكبت والعقد النفسية مبررات "علمية" للفوضى الجنسية، وأصبح المحللون والمعالجون "ينصحون" الشباب والفتيات بإقامة العلاقات الجنسية بكل حرية لأجل تحقيق الصحة النفسية.

- الاعتراض الأساسي على نظرية فرويد في الشخصية أنه قصر الجانب الفطري على الدوافع الحيوانية، وجعل العقائد والقيم أشياء خارجية مفروضة على الإنسان تتعارض مع نزعاته الفطرية، وهذا خطأ فادح، ذلك أن الإنسان يتميز عن الحيوان بجانب روحي سام.

- من رحمة الله سبحانه وتيسيره على العباد أن جعل الزينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدنيا ومطالب المعيشة. ولعل في هذا رد حاسم على المدرسة الفرويدية التي تزعم أن الدين محبط لنزعات الإنسان ويسبب له الإحباط والأمراض النفسية نتيجة قمعه للشهوات والزينات. فهذا فهم زائف للدين.

– جعل فرويد الأساس الأول للتكوين الفطري الغرائز (الجنس والعدوان) وبهذا سلب الإنسان كل القيم والجوانب العليا التي استحق من أجلها الخلافة في الأرض.

–الشريعة الإسلامية نظمت أسلوب ممارسة الإنسان لشهواته في إطار ما هو مشروع وبعيداً عن المحرمات والمؤمن كيس فطن، يستنير بنور القرآن الكريم وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

هذا ما تيسر وإني أسأل الله تعالى أن يغفر لي ما زل به القلم واللسان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر

١–الإسلام وقضايا علم النفس الحديث. د.نبيل محمد السمالوطي. ط٢. جدة. دار الشروق–١٤٠٤هـ.

٢–أصول علم النفس العام في ضوء الإسلام. د.أحمد محمد عامر. ط١. جدة. دار الشروق–١٤٠٦هـ.

٣–تاريخ الفكر الأوروبي الحديث. رونالد سترومبرج. ترجمة أحمد الشيباني. ط٣. دار القارئ العربي–١٤١٥هـ.

٤–التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية (البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي). محمد عز الدين توفيق. ط١. القاهرة. دار السلام–١٤١٨هـ.

٥–التحليل النفسي ماضيه ومستقبله. حسين عبدالقادر– محمد أحمد النابلسي. دمشق. دار الفكر. ط١–١٤٢٢هـ.

٦-العلم في منظوره الجديد. أغروس روبرت م جورج، ستانسيو. ترجمة كمال جلايلي. سلسلة عالم المعرفة. عدد ١٣٤-١٤٠٩هـ.

٧-علم النفس الإكلينيكي. روش جوليان. ترجمة عطية محمود. دار الشروق. ط٢-١٩٨٤م.

٨-علم النفس في مائة عام. فلوجل. ج. ل. ترجمة لطفي فطيم. ط٤. بيروت. دار الطليعة-١٩٨٨م.

٩-مسند أحمد بن حنبل. بيروت. دار صادر.

١٠- المعجم الفلسفي. د. جميل صليبا. الشركة العالمية للكتاب. بيروت-١٤١٤هـ.

١١-الموسوعة الفلسفية. د. عبد المنعم الحفني. القاهرة. مكتبة مدبولي. ط١.

١٢-موسوعة الفلسفة. د. عبد الرحمن بدوي. ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط١-١٤١٥هـ.

١٣-المعجم الفلسفي. عبد المنعم الحفني. ط١. مصر. الدار الشرقية-١٤١٠هـ.

١٤-موسوعة الفلسفة والفلاسفة. د. عبد المنعم الحفني. ط٢. مكتبة مدبولي-١٩٩٩م.

١٥-الموسوعة العربية الميسرة. محمد شفيق غربال. بيروت. دار الجيل-١٤١٦هـ.